شاعر الغزل الصريح شاعرا عذريا

أ.م.د. إنعام داود سلوم
قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد

الخلاصة:

اراد البحث ان يثبت ان شعراء هذه المدرسة لايقلون عذرية وسموا في احاسيسهم عمن اطلق عليهم شعراء الغزل العذري. وهم لم يكونوا طلاب متعة حسية يترجمون مغامراتهم الى شعر بل أراوا لأنفسهم ان يعيشوا حياة عاطفية تجمع بين الواقع والخيال. وان تجاربهم وان صورت شيئا من المادية لا تصور نزعة شهوانية حقيقية بقدر ما تعبر عن اتجاه فني عام حتى عند العذريين حين يبدو لهم ان يصفوا مظاهر الحسن والجمال في من يحبون.

يجعل الباحثون الغزل على القسمين: ١- الغزل العذري٢ - الغزل الحسي والذي يطلقون عليه ايضاً المادي والفاحش ولا ذنب له في ذلك سوى نشأته في حواضر نجد والحجاز تلك الاماكن التي عرفت بتحضرها ودخول الكثير من العناصر غير العربية اليها والتي اختلطت بالعرب واضفت على حياتهم الكثير من الرقة والترف والتطلع الى ما لدى هؤلاء من فنون لم يألفها العرب من قبل كفني الغناء والموسيقى.

فالشاعر الحضري اختلف شعره عن نظيره البدوي الذي دار في فلك امرأة واحدة نراه يتعبد في محرابها مؤثراً إياها على بقية النساء الآخريات مظهراً عواطفه واحاسيسه إتجاهها مبيناً ما يعاني من لوعةٍ وألمٍ وشوق وغالباً ما تنتهي قصته نهاية محزنة لان المجتمع البدوي آنذاك كان يرى في علائق الحب عاراً وفي الشعر المعبر عن تلك العلائق عاراً اكبر فما ان يشيع اسمها في شعره حتى يُحرم من الزاوج منها فَيَهيمُ على وجهه او يموت كمداً وحزناً وخاصة بعد ان تُزوج الفتاة برجل اخر.

والحقيقة اني ارى ان من قام بتقسيم الغزل وجعله على قسمين قد أجحفه حقه واخطأ في ذلك خطأ كبيراً ولا سيما بعد ان اطلق على النوع الثاني منه لفظ الفاحش والحسي والصريح، فهذا النوع من الغزل والذي نعت بكل هذه النعوت الجائرة هو في الحقيقة بعيدُ عن الصراحة كل البعد وهو غالباً ما يركز على الصفات الخارجية للمرأة اكثر من تركيزه على العواطف والاحاسيس فهو يصف ما تتسم به هذه المرأة من سمات جمالية جعلت منها أهلاً لوصف الشاعر لها مع عدم إهماله لعواطفه ومشاعره اتجاهها في الوقت ذاته ولكنه اكثر ما يهتم بالصفات الجمالية، قال عمر[١]:

بانوا بِهرِ كَوْلَةٍ فَعْم مُؤَزّرُها

كأنها تحت سِــجْف القُبّة القمرُ

هَيْفَاء قبّاء مصقولٌ عوارِضُها

عَسْرَاء عند التأبّي حين تَجْتَمِرُ

تكاد من ثقل الارداف ان نهضت

الى الصلاة بُعيد البُسْر تنبَتِرُ

تجلو بمســـــواكها غُراً مفلّجَةً

كأنها اقحوان شَـــافَهُ مَطَرُ

أين الحسية في ذلك؟ هو حديث عادي عن الجمال الذي تتصف بــه الحبيبــة وهــي الصفات نفسها التي وردت عند شعراء الغزل العذري.

وهذا جميل يطالعنا بقوله[٢]:

وبيضِ رِعَابِيبَ تُثنّي خُصورَها

اذا قُمْنَ أعجازُ ثِقالٌ وأســوُقُ

غُرائِرَ لم يَلْقَيْنَ بؤسَ معيشـــــةٍ

يُجَنُّ بها النـــاظرُ المُتـــــنوّقُ

وقـــــال ايضاً[٣]:

كأن الخدورَ أولجت في ظِلالـــــها

ظِباءُ الملا ليســتْ بذات قُرُونِ

الى رُجَّحِ الأَ عْجازِ حُورٍ نمى بها

مع العِتْق والأحْسابِ صالحُ دِينِ

ولا سيما ان الشاعر الاموي الحضري محاط بالجمال من كل جهاته فلا بد له ان يصف مهما حاول ان يمنع نفسه فانه لا يستطيع ذلك خاصة وان العصر يعج بالجواري من مختلــف الاشكال والاجناس نتيجة للفتوحات الاسلامية فضلا عن ان المرأة العربية معروفــة بجمالهــا الاخاذ.

قال العرجي[٤]:

فيــهم حُرّةُ مُبَــتّـــــــلةُ

مهضُومةُ الكشْح مالها مَثَلُ

مليحة الدّلّ كالمهاةِ لهــا

لَونٌ جَلاهُ النّـــــعِيمُ فَالكِلَلُ

فترف العصر انعكس على هؤلاء النسوة فهن رشيقات جميلات منعمات مدلالات مخدومات واهم شيء انهن (حرائر).

وكذلك قوله [٥]:

فيهن بهنانةُ كالشمشِ اذ طَلَعَتْ
تُصبي الحليمَ بدلّ فاخرِ حَسَنِ
كالغصنِ هبتْ له ريحٌ برابيةٍ
من العَمَاءِ أتتْ مِنْ وجهةِ اليمنِ

فهذهِ الجميلة تذهب بعقل الرجل الرزن الوقور فتخرجه عن رزانته وتعقله.

فشاعر الحاضرة هو انسان قبل كل شيء يمتلك حاسة البصر كغيره من الناس وله عواطف ومشاعر مرهفة فضلاً عن ذلك انه يحب امرأة واحدة فقط حباً صادقاً وقد يفشل في هذا الحب فيتخذ من الاخريات وسيلة لقضاء الوقت وعلى الرغم من صدق حبه لكنه لا يستطيع ان يقصر عينه على واحدة كما فعل مع قلبه بل يتبع الجمال اينما كان فالعين تهوى النظر الى الجميلات من حرائر واماء ولاسيما ان المرأة كانت تتفنن في وسائل التجميل وجذب الانتباه.

قال عمر[٦]:

أَعاتِك ما ينسى موَّدتَك القلبُ
ولا هو يسليه رخاءُ ولا كربُ
ولا قول واشٍ كاشحٍ ذي عداوةٍ
ولا بُعدُ دارٍ ان نأيت ولا قربُ
وما ذاك من نعمى لديك اصابها
ولكن حباً ما يفارقه حبُ
أذل لكم ياعبدَ فيما هَوِ يتُمُ
واني لدى مَنْ رامني غيركم صعبُ
واعذل نفسي في الهوى فتعوقني
ويأصرني قلب لكم كلف صب
وفي الصبر عمن لا يُواتيك راحةٌ
ولكنه لاصبر عندي ولا لُبُّ

فالقارئ لهذه الابيات لو لم يعرف اسم قائلها لظن انها لشاعر من شعراء الغزل العذري لما فيها من عاطفة صادقة نابعة من قلب الشاعر.

وهذا انموذج اخر يبين ان الحب كالقدر المكتوب لا مهرب منه حيث يقول[٧] :

قضى مُنْشِرُ الموتى عليّ قضيّة
بحبك لم أملك ولم آتها عمدا
فليس لقرب بعد قربك لذةٌ
ولست أرى نأياً سوى نأيكِم بُعدا

ولقاؤه بمَنْ يحب يكون وقعه على نفسه كالماء البارد للظمآن، ومَنْ يراه يحسبه متماسكا قوياً لكنه في واقع الامر قد أضناه الهجر واتعبه الصدود قال[٨] :

فما نلتقي من بعد يأس وهجرة
وصدع النوى الا وجدت لها بردا
على كَبِدٍ قد كاد يُبدي بها النوى
صدوعاً وبعض الناس يحسبني جلدا

وهذا العرجي تراه يسهر والناس نيام معانياً من عذابات الحب واهات الغرام الشئ الكثير لا لذنب اقترفه بل لانه احب حباً صادقاً كان منه شيمةً وخلقاً.

قال[٩]:

يامَنْ لعين قد اجلى نومها الارق
فدمعها بعد نوم الناس يستبق
لم ترقد الليل من همٍّ الم بها
حتى ارتدى في الصباح الواضح الافق
لم اجن ذنباً ولم آتي لكم سخطاً
ففيم تحجب عني دونك الطرق
فمن تكلف حباً او تخلقه
فان حُبّك مني شِيمةٌ خُلُقُ

فهو عذري الهوى صادقة الصبابة لا يرى غير الحبيبة الواحدة التي هام بحبها، وهذه هي اخلاقه وطبيعته لا إدعاء منه.

قال عمر[١٠]:

اني وأولَ ما كَلِفْتُ بحبِّها

عجب وما بالدهر من مُتعجَّبِ
نعت النساء فقلت ليس بِمُبْصِرِ
شـــــــبهاً لها ابداً ولا بمُقَرَّبِ

فالشاعر لا يرى شبهاً لها ولا مَنْ هي قريبة من جمالها.

ونجد الالفاظ التي ترد في معجم الشاعر العذري هي نفسها عند عمر واضرابه ممــنْ يسمون شعراء غزل صريح فالمفردات ذاتها التي تُظهِر الالم والمعاناة في الحــب والصــبابة، حيث يقول(١١):

ايها العاتــب الذي رام هجري
وبعادي ومن علــمت بــذاكا
ألقــتلي اراك اعرضــت عني
أم بعاداً أم جفـــــوةً؟ فكــفاكا
قد بريــت العِظَامَ والجِسْمَ مني
وهوانا موافــق لهـــــــواكا
قد بُليــنا وما تجُودُ بشـــــيء
ويح نفســي باحِبٌّ ما أجْفَاكا

وقولـــــه(١٢):

الا يامن احب بكل نفسي
ومَنْ هو مِنْ جميع الناس حَسْبي
ومن يَظْلِم فأغفِره جَمِيعاً
ومَنْ هو لا يَـــــــهُمُّ بغفرِ ذَنْبِ

فلا يخامرنا الشك للحظة ان هذه المشاعر غير صادقة بل هي مشــاعر معبــرة عــن معاناة ومكابدة حقيقيتين ونفس حائرة لا تدري ماذا تفعل.

ولكن للبيئة اثرها الكبير في توجه هذا الشاعر نحو وصف العديد من النساء فهو بفعل اختلاطه مع الكثير من النساء وتحضره ورؤيته للجواري فانه يتنقل من واحدة الى اخرى لان الجمال وصاحباته متوافرات في المجتمع اما العذري فانه منغلق على نفسه فــي جزيرتــه لا يخرج منها منكفيء على ذاتهِ فهو لا يرى سوى نساء قبيلته او القبائل المجاورة لذلك فهــو

يتعلق بامراة واحدة دون غيرها ولا يبرحها الى سواها فتصبح هي المثال في نظره، وهـو لا يزال يحيا تلك الحياة البدوية السابقة التي كان يحياها العربي في العصر الجاهلي او الاسلامي قبل خروجه للفتوحات واختلاطه بالاقوام الاخرى.

وهذا عمر يقول(١٣):

خرجت غَداة النَّفْر اعترض الدُّمى

فلم أرَ احلى منك في العينِ والقلـبِ

فو الله ما ادْرِي أحُسْـنـاً رُزِقْتِهِ

أم الحبُّ أعْمَى كالذي قِيلَ في الحبِّ

وقولـه:

احدث نفسـي والاحاديث جَمّةٌ

واكبُر همي والاحاديـث زينب(١٤)

اذا طلعت شمسُ النهارِ ذكرتُها

وأُحْدِثُ ذكراها اذا الشمسُ تغرُبُ

ورب سائل يسأل فيقول لقد وردت اسماء النساء كثيرات في دواوين شـعراء الغـزل الصريح فما سبب ذلك وانت تقولين انه عشق واحدة فقط.

فنـعلل ذلك بقولنـا:

١. إني ارى ان الشاعر الحضري كان اكثر ذكاءً من العذري الذي صرح باسم مَنْ يحـب فحرم من الزواج منها.

اما هذا فانه لم يحدد اسماً بعينه وانما اراد بذلك التعمية والتمويه عن اسم مَـنْ يحـب حبـاً حقيقياً فأورد هذا الكم من الاسماء.

٢. ثم ان المراة اتخذت من الشاعر وسيلة اعلامية للحديث عن جمالهـا فبعضـهن كـن يرسلن لعمر كي يتغزل بهن فيشيع ذكرهن وترد اسماؤهن فيصبح لدى الشباب رغبـة فـي رؤية هذه المرأة اوتلك التي تغزل بها فلان من الشعراء فيشيع ذكرها ويكثر خطابها.

اذن هناك الراغبات بالشهرة من النساء اللواتي يطلبن ذلك صراحة من الشاعر وهـذا لا يعني انها تردت في مهادى الرذيلة والخطأ وان تمتعت بقسط وافرٍ من الحرية ولكنها حرية محاطة بسور من العفة والطهر تحكمها التقاليد والاعراف الاجتماعية ويظللها الاسلام بظلـه وما فيه من حث على التسامي والارتفاع عن الحس والمادة الى الروح.

والمراة تعرف ما لها من سطوة كبيرة على الرجل فتدخل ميدان القتال (الحب) دخـــول الفارس الأعزل الذي لا يمتلك السلاح ولكنه واثق من نفسه بأن له الغلبة والنصر على خصمه وهذا عمر يعترف بذلك فيقول(١٥):

بنفسي من اشـــتكي حبه

ومَنْ ان شكا الحب لم يكـــذب

ومَنْ لا يُطيعُ بنا اهـــلَهُ

ومن قد عَصَـــيْتُ له أقربـــي

ومن لونهاني من حبـــه

عن الماء عطشان لم أشْـــرَبِ

ومن لا سلاح لهُ يتـــقى

وان هو نُوزل لم يُـــــغلَبِ

ويطالعنا عبيد الله بن قيس الرقيات ذلك الشاعر الرقيق المعـــروف بانتمائـــه للحـــزب الزبيري ولولا اعتناقة لنظرية هذا الحزب لفاق عمر في هذا المضمار حيث يقـــول(١٦):

فليتـــــني لم اكن علِقـــــتكم

وليتـــــها بالنَّوال لم تعِدِ

حتى متى تنجزين وعدي فقد

طال وقوفي لوعدك النكد

تركتني واقفاً على الشَّـــكِّ لم

أصدُرْ بيأسٍ منكم ولم ارِدِ

وهذا الوليد بن يزيد المعروف بمجونه ولهوه ومع ذلك نرى العشق الصادق يأخذ بلبه ويسلبه حب سليمى قلبه فيقول(١٧):

لا اسأل الله تغييراً لما صنعت

نامت وان أسهرت عيني عيناها

فالليل اطول شيء حين أفقدها

والليل اقصر شيء حين ألقاهـــا

وهذا الشعور لا يصدر الا عمن أحب بصدق وعانى طول الليل بفقد الاحبة وقصره بوجودهم فهو بذلك لا يختلف عن ليل امرئ القيس الذي يشعر بوطئة ثقل ساعاته لشدة معاناته.

وقوله ايضاً[١٨]:

أم سلام اثيبي عاشقاً
يعلم الله يقيناً ربهُ
فارحميه انه يهذي بكم
هائم صب قد أودى قلبه
انتِ لو كنت له راحمة
لم يكدر ياسلمى شربُه

اذن لو كان شاعر الغزل الصريح حسياً لبحث عن المتعة واللذة عند امرأة أخرى ولا داعي للسهر والدموع والشكوى ولرفع المعاناة من قاموسه الشعري.

وهذا الاحوص الشاعر الذي وسم بالصراحة ايضاً يقول[١٩]:

أفي كل يوم حَبَّة القلب تقرع
وعيني لبين من ذوي الود تدمع
اذا ذهبت عني غواش لعبرةٍ
أظل لاخرى بعدها أتوقع
فلا النفس من تهيامها مستريحة
ولا بالذي يأتي من الدهر تقنعُ

وقوله:[٢٠]

ابى قلبها الابعاداً وقسوةً
ومال إليها ود قلبك أجمعُ
فلا هي بالمعروف منك سخية
فتبرم حبل الوصل أم تتبرع
ولا هو اما عاتب كان قابلاً
من الهائم الصب الذي يتضرّع

نلاحظ التمنع والبخل وهما صفتان اتصفت بهما حبيبة شاعر الغزل العذري والتضرع والهيام مما ينعت بهما المحب الصادق نفسه لوكان متكلفاً متقولاً لما اهتم بالحديث عن مشاعر

العاشق وما يعتريه من احاسيس ولاستبدل هذه بتلك وانتهى الامر، والعصـــركما قلنـــا يعـــج بالحرائر والجواري ولا يحتاج العاشق للتضرع والتوسل.
ونخلص من هذا كله الى نتائج منها:

١) ان شعراء هذه المدرسة لا يقلون عذريةً وسمواً في الاحاسيس عمن اطلـــق علـــيهم شعراء الغزل العذري فعمر بن ابي ربيعة واضرابه ممنْ نظموا في هذا النوع لـــم يكونـــوا طالبي متعة حسية يترجمون مغامراتهم الى شعر بل ارادوا لانفسهم ان يعيشوا حياة عاطفية وسطاً تجمع بين الواقع والخيال.
٢) ان تجارب هؤلاء وان صورت شيئاً من المادية لا تصور نزعة شهوانية حقيقية بقدر ما تعبر عن اتجاه فني عام حتى عند العذريين حين يبدولهم ان يصـــفوا مظـــاهر الحســـن والجمال فيمن يحبون.
٣) هذه التجارب لا تعدو ان تكون اعجاباً ناشئاً عما تقع عليه عينه ثـــم التحـــدث عمـــا التقطته تلك الحاسة من جمال العيون ودقة الخصر وغزارة الشعر وبياض البشرة... الخ من الصفات التي كانوا يعجبون بها من جمال المرأة.
٤) ان الشاعر الحسي عرف معنى المعاناة والمكابدة كما كان حال الشاعر العذري ونلمس ذلك واضحاً في اشعاره التي تدل على مكابدة حقيقية والم وسهر وشوق لمَنْ يحب على ان الشاعر الحسي لا يصف جمال الجسد للاستمتاع واللذة فقط بل ليعبر عـــن عاطفـــة الحـــب وتجربة وجدانية وعن احساسه وتأثره بالجمال الحسي ومدى وقعه وتأثيره في نفسه مـــن خلال عاطفة الحب التي تربطه بالمرأة.
قال عمر[٢١]:

ما كنت اشـــــعر الا مذ عرفتـــكم
ان المضاجع تمسي تُنبت الابرا
لقد شقيت وكان الحين لي ســـــبباً
ان علق القلب قلباً يشبه الحجرا
قد لمت قلـــــبي واعياني بواحـــدة
وقال لي: لا تلمني وادفع القدرا
ان اكره الطرف يحسر دون غيركم
ولســـت أحسن الا نحوك النظرا

٥) ان شعراء الغزل عامة سواء أكانوا حسيين أم عذريين نجد انهم يلتقون في تأكيدهم وتكرارهم لصفات بعينها من الجمال نابعة من طبيعة مجتمعهم الذي عاشوا فيه.

٦) ومن خلال اشعار هؤلاء ثبت لنا ان شاعر الحب الصريح ولهُ يعجب بالحسنِ ولكنه يكتفي بنشوة الروح من غير ان تصيبه اللذة الجسدية العابرة[٢٢] مخرجاً ((المرأة من نطاق الوصف المادي الى شيء من الروحانية ووصف الاحاسيس الداخلية والمظاهر النفسية))[٢٣].

ولا نجردهم تماماً عن الحسية ونجعل منهم ملائكة في ثياب بشر بل اقول انهم وصفوا بإشارات عابرة محاسن المرأة ولقاءهم بها بشيء من الصراحة ونحن ندرك ان الصراحة شيء والفحش شيء اخر اي اقصد به الوصف الحسي المفصل للجمال الجسدي والمتع والشهوات الذي يحتوي على غير قليل من التجسيم والتفصيل.

ويؤكد ما قلته رأي د. عبد القادر القط[٢٤]، حيث يقول ((فالقصيدة تنتهي في اغلب الاحيان بالاشارة الى متعة حسية يسيرة لا تتناسب مع الجهد الذي صوره الشاعر قبل اللقاء وكأنما كان هدف الشاعر ان يصور هذا الجهد وذلك الاحتيال للقاء بكل ما يحملان من لحظات نفسية، فاذا انتهى الى اللقاء كان حسبه من الحديث الاشارة أو الرمز وآية ذلك أن رائيته التي تتخذ دائماً نموذجاً لتصوير تلك المغامرات تقع في خمسة وسبعين بيتاً ويمهد الشاعر فيها للقاء بأربعة وثلاثين ثم يكتفي من الحديث عن هذا اللقاء بقوله[٢٥]:

فبت قرير العين، أعطيت حاجتي

اقبّل فاهـــا في الخلاء فأكـــثر

وكذلك يفعل في قصيدة أخرى:

فلثمت فاها آخذاً بقرونـــــها

شُربَ النزيف ببرد ماء الحَشْرجِ[٢٦]

وقولـــه[٢٧]:

فبت ألثمها طوراً ويُمتـــعني

اذا تمايـــل عنه البـردُ الخَصَرُ

فهي لا تعدو ان تكون اشارات بعيدة كل البعد عن الحسية بمعناها المعروف في الادب.

الهوامش:

(١) الديوان، ص ١١٠-١١١.

(٢) الديوان، ص١٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٤) الديوان، ص٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٠-٤١.

(٦) الديوان، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٧) و(٢) الديوان، ص٣٠٩.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

(٩) الديوان، ص٣٢-٣٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤١١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٤٦٥.

(١٢) الديوان، ص ٤٧٧.

(١٣) الديوان، ص ٤٧٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(١٥) الديوان، ص ٤٢٦.

(١٦) الديوان، ص ٧٧.

(١٧) الديوان، ص ٢٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٢٠) الديوان، ص ١١٥.

(٢١) الديوان، ص١٤٣-١٤٤.

(٢٢) ينظر:عمر بن ربيعة شاعر الجمال المترف، ص٤١.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٢٤) في الادب الاسلامي والاموي، ص١٧٤-١٧٥.

(٢٥) الديوان، ص ٨٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

A Plain Love Poet is a Platonic Poet

Ass.prof.dr. Inam Dawood Salloum

Abstratc:

The research aims at showing that poets of this school are as noble and spiritual in their feelings as those who are called the platonic poets. They have not been seekers of sensual pleasure who reflect their adventures in poetry. Rather, they want to lead a romantic life which is a combination of reality and vision. Although their experiences show little sensuality, they do not portray a real sexual appetite. On the contary, they represent an artistic doctrine which is familiar even to platonic poets when describing their love's beauty and prettiness.